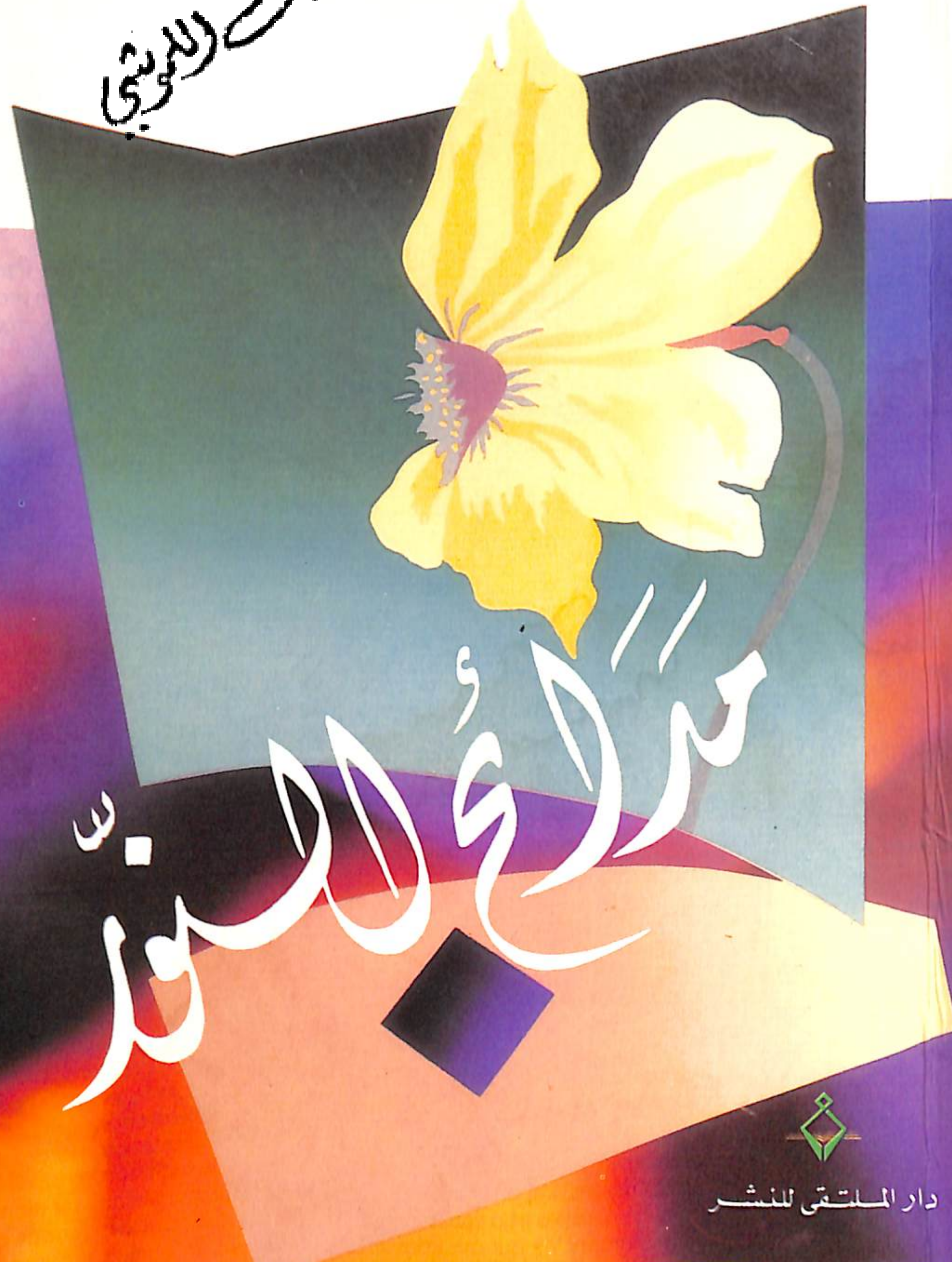
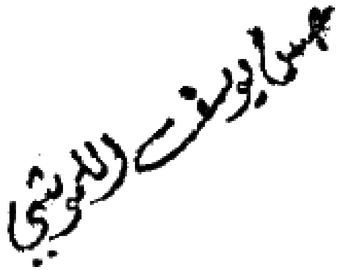
عيسى يوسف اللويشي

ترجمة : محمد علي اليوسفي

مدائح الضوء



دار الملتقى للنشر



مدائح النور

مدائح السنّور

مختارات

من الشعر اليوناني

ترجمة : محمد علي اليوسفي

دار الملتقى للنشر

الطبعة الأولى

1994 م

الناشر:

دار الملتقى للطباعة والنشر

ليماسول ـ قبرص

ص.ب 6527

مدائح النور

مختارات

من الشعر اليوناني

للشعراء:

- □ سولوموس
- □ بالاماس
- □ كافافي
- □ كازنتزاكيس
- □ سيكيليانوس
- □ سيفيريس
- □ ايليتيس
- □ ريتسوس

تقديم

خلال مرحلة الهيمنة العثمانية على اليونان تقلص الأدب اليوناني منكفئاً على نفسه ومقتصراً على بعض الجزر التي سيطرت عليها البندقية (فينيسيا) وغلبت على ذلك الأدب القصائد الملحمية.

وبعد الهيمنة العثمانية وجد الكتّاب اليونانيون أنفسهم منقسمين حول خيار مزدوج: اللغة الإغريقية الصافية، من جهة، واللهجة الشعبية من جهة ثانية. لكن ذلك لم يمنع بروز عدد من المشاهير، خلال القرن الثامن عشر من أمثال ماليتيوس، ولاسكاريس، وتيوتوكيس.

وخلال القرن التاسع عشر كان أشهر اسم هو كاراييس (1748-1833) ثم جاء سوستوس وريغاس ورانغافيس وغيرهم. ثم بدأ المثقفون، في الربع الأخير من هذا القرن، أي التاسع عشر، ينتبهون الى أهمية الأغاني الشعبية، ويستفيدون منها. وتمكنت تلك الأغاني من إجبار النخبة المدافعة عن نقاء اللغة

الإغريقية القدسية، على الاعتراف بالجمالية الغنائية في الأدب الشعبي.

وهكذا، توالت الأسماء الأدبية، من ماركوراس إلى مالاكاسيس، ومن سوريس إلى سيكيليانوس وسيفيريس. وازدهرت عدة أسماء، كانت هي الأبرز في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وشملت بالاماس الذي ولد سنة 1859 في مدينة باتراس، وكافافي الذي لم تظهر أعماله الكاملة إلا سنة 1935، أي بعد عامين من وفاته في مسقط رأسه، الإسكندرية.

وسرعان ما تدعمت مسيرة الشعر اليوناني بأسماء بارزة اكتسبت شهرة عالمية في العقود الأخيرة، ومنها سيفيريس، وايليتيس، وريتسوس.

* * *

في هذه المختارات التي نقدمها للقارىء العربي سعينا الى الجمع بين ثلاثة أصناف من الشعراء اليونانيين. فهناك شعراء باتوا معروفين لدى القارىء بفضل ترجمة مختارات من أشعارهم، وصدورها في كتب ومجموعات هنا وهناك. ومنهم، في الدرجة الأولى: كافافي، وريتسوس.

وهناك شعراء، يعتبرون «نصف معروفين» إذا صحّ التعبير. أي أنهم لم يحظوا بترجمات متكاملة، إلا ما نشر لهم من قصائد متفرقة في بعض الدوريات العربية، وضمن نماذج مختارة قليلة من أشعارهم، ومن هؤلاء سيفيريس وإيليتيس، على سبيل المثال.

يبقى هناك صنف ثالث، ضمن مختاراتنا هذه، وهو لم يحظ بترجمات تذكر عندنا. ويدخل ضمن هذا الصنف كل من سولوموس وبالاماس وسيكيليانوس. ويمكن أن نضيف إليهم كازنتزاكي الذي لم يعرف عندنا إلا بأعماله النثرية. ونحن نقتطف له في هذه المختارات مقاطع من ملحمته «الأوديسة» الجديدة.

وإذا كانت هذه المختارات هي أول كتاب في العربية، على ما نعتقد، يجمع بين دفّتيه هذا العدد من الشعراء اليونانيين، فإن ذلك لا يعني أننا استوفينا الأسماء الشعرية الأخرى، مثل كالفوس وامبيريكوس وفريتاكوس، وصولاً الى الشعراء الأحدث مثل مانوليس أناغنو ستاكيس، وميغاليس غاناس، وكيكي ديمولا، وتيتوس باتريكيريوس، فضلاً عن الشعراء الشباب الذين تعجّ بهم الساحة الشعرية اليونانية حالياً.

فبرغم جسور التواصل بين «العالم الهلّيني» (أو ما تبقى منه اليوم: اليونان وقبرص) والبلدان العربية، منذ القدم، إلى العقود الأخيرة، يبدو التبادل الثقافي شحيحاً، متقطعاً، أو مرتجلاً في أحسن الأحوال، بين الجانبين.

والمسألة ليست بعيدة عن مشاكل عالمنا المعاصر، وخصوصاً منذ هيمنة الإمبراطورية العثمانية وصولاً إلى حروب الاستقلال التي خاضتها شعوب المنطقة ضد المستعمر الأوروبي.

لقد أصبحت النُّخب المثقفة، غداة الهيمنة الاستعمارية، متوجهة الى «مركز» أوروبي. ولاحت المشاكل التي يتعرض لها أو يطرحها المثقفون، هنا وهناك، متشابهة في جوانب عديدة.

فهناك، من جهة، أمجاد عريقة في كلٍّ من التراثين العربي واليوناني. وقد تلت ذلك هيمنة عثمانية (يُختلف في تقويمها وتقديرها) وخضوع للقوى الاستعمارية، من جهة ثانية.

ترتب على ذلك، ضمن الحقل الثقافي والإبداعي، بروز ازدواجية متأرجحة بين التراث والتجديد، أو بتعبير آخر، بين الأصالة والتأثر بالتيارات الغربية المعاصرة.

ذلك هو موضوع البحث عن الهوية كما ينعكس جيداً

لدى الكتّاب اليونانيين المعاصرين، وفي طليعتهم الشعراء الذين نترجم لهم اليوم.

لقد سعوا في مجملهم، إلى البحث عن أسلوب جمالي يزاوج بين أسلوب قديم وآخر معاصر، وذلك ضمن مزيج إرادي ومقصود، يوصي بالحاضر ضمن أشكال تتوسل التاريخ والأسطورة.

وعندما نطّلع على هؤلاء الشعراء، وعلى نتاجاتهم الشعرية ـ مع تمايز الأشكال الفنية وأساليب المعالجة ـ نلاحظ كثرة الإحالات الممكنة والتي تشي بوجود هذه الثنائيات في الشعر اليوناني، سواء أتعلق الأمر بالأشكال الفنية، أم بالمضامين.

فهناك تأثر واضح بالغرب، مع جهود جادة من أجل الاستناد الى التراث الإغريقي والمتح منه.

وهكذا يبدو البحثُ عن الأسطوري (الإغريقي)، نتيجةً للتبعية التي وصلت مع بعض الشعراء، إلى محاولة الكتابة بالإيطالية والفرنسية والإنجليزية. وأدّى ذلك إلى البحث عن حلّ وسط بين التبعية للروح الإغريقية القديمة من جانب، وللثقافات الأوروبية المهيمنة، من جانب آخر.

وكانت النتائج التي فاجأ بها شعراء اليونان العالم تكمن

في توصلهم إلى المحافظة على الروح الإغريقية وتجنّب التقليد الأعمى للغرب. ويعني ذلك تحاشي الابتذال في التعاطي مع الأسطورة، وتجنّب الغنائية والمواقف العاطفية المبالغ فيها.

ذلك ما نلاحظه لدى شعراء اليونان، من كافافي إلى ريتسوس، مروراً بكازنتزاكي الذي تأثر بنيتشه وبرغسون، وكذلك سيفيريس الذي كان أنموذجه الشاعر ت. س. إليوت.

ولم يكن شعراء اليونان متفرغين، ضمن هذه الظروف، للالتفات إلى ثقافات أخرى، غير تلك القادمة من «المركز» الأوروبي؛ غير أنهم اتجهوا أيضاً، فضلاً عن التراث الإغريقي، إلى محاولة الاستفادة من الأغاني الشعبية والحياة اليومية (يانيس ريتسوس بخاصة).

* * *

وإذا عدنا إلى انعدام التواصل ـ أو ضعفه ـ على الصعيد الثقافي تحديداً، بين العرب واليونانيين، فإننا نكاد نجزم أنه يبدو أشدّ، من الجانب اليوناني، وذلك بمقارنة حجم الترجمات في الاتجاهين.

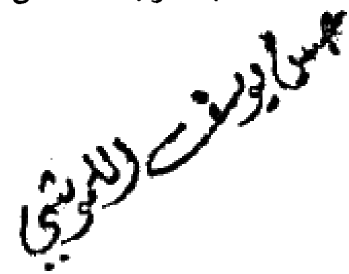
ولعلّ حياة قسطنطين كافافي تقدم مثالاً نموذجياً على ذلك، منذ أن كان يعيش في الإسكندرية.

يحدّثنا جورج غافي، عن تلك المرحلة، في كتابه عن «قسطنطين كافافي» (صدر بهذا العنوان ضمن سلسلة «شعراء اليوم»، منشورات سيغيرس، باريس، 1964)، فيقول: «ذات يوم اشتكى لي كافافي من عزلته الثقافية (...) رغم أنني بين 1916 و 1922 وخلال الزيارات الطويلة التي كنت أقضيها في ضاحية الرمل بالإسكندرية، تشرفت بالتردد على شعراء عرب مثل شوقي بك وخليل مطران وعدد من الكتّاب باللغة الفرنسية... واستغربتُ لامبالاة كافافي بكل النتاج الأدبي لمواطنيه. ورأيت أن أقدّم له اللبناني خليل مطران (...) الذي كانت شهرته، آنذاك، في الوطن العربي، أوسع من شهرة كافافي في العالم الهلّيني.

«تَمَّ اللقاءُ في مقهى «أثينيوس». وكان الحوار لطيفاً وتغلب عليه روح المجاملة. لكنه لم يُشفع بحوار آخر، ولم تكن له بقية. كان كل واحد منهما يعيش في عالم مغلق (...) كان مطران مهتماً بفلسفة أفلوطين. وقد كتب صديقه شوقي تراجيديا حول كليوباترا. وترجم صديقه لطفي السيد، أرسطو، الى اللغة العربية...».

لكن هذه الصورة تجد نقيضها عند يانيس ريتسوس، الشاعر الملتزم، الذي كان مقرّباً من مشاكل عصره، ومدافعاً عن القضايا العربية، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية، التي كتب حولها عدداً من قصائده التضامنية.

«المترجم»



النبي رأى

النبي رأى. لكن من عساه يكون؟ هذا لا يهم كثيراً؛ لكن
النبي رأى، اتصلت روح بروح ولم تتدخل بينهما أية
معجزة من الأرض أو من السماء.

القوة الرائية لدى إحداهما عانقت الأخرى، ذات الطبيعة
الطاهرة، كما نور الشمس يعانق الوردة.

فعلت ذلك في سبيل الفردوس، مختالة بكنوزها الذاتية.

كيف أتصرف لأكتشف تلك الكنوز وأحتفي بها؟

لا شك أنه من «فضل السكوت والنظر».

آه! لو أن الكون، منتشياً بالبهجة، مرتجفاً حباً، يلتفت نحوك
يا زنبقة أريحا، نحوك يا زنبقة عدن، لو أنه، من أصغر
جزء فيه، الحجر، إلى أكبر جزء فيه، الشمس، يدفع
إتاوة الزينة والأكاليل لصورتك الآلهية؛ لو أن الكواكب

ترسل صوتاً، كوكباً كوكباً، تناديك باسمك وتحيي فيك ملكة الجمال والنعمة،

عندئذ لن يستطيع الكون ولا النجوم معادلة ما رأيته بعيون الروح؛ إنه عالم مولد لعوامل ومعجزات، يرغمني على الإيمان بأشياء غريبة عني، يخلصني من هاوية المادة، ويكف عن اعتقالي في حضنه الكلي القدرة.

سقطت النعمة من حضن الصانع الأكبر إلى حضنك، ومن حضنك إلى حضني، حيث اندسّت، ضيفة غير منتظرة، وألّهته.

ربما أعطاني ذلك مفتاح كل الألغاز؛ وسوف أكشفها كلها للأرض المذهولة.

يا عذراء العذارى، إذا ما تضوعت أنغام موطنك الآلهي ذي المعجزات المتعددة التي شكّلتها الملائكة، وإذا أمكن لبعض تلك الأنغام أن يُسمع في السراديب الجهنمية حيث تعمّ اللعنة، فإنها سوف تدمِّر فوراً ويغير المحكومون أبديتهم.

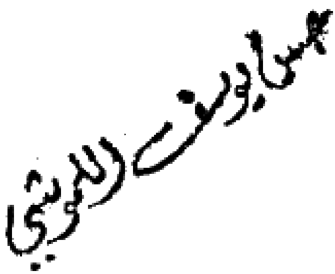
أبديتهم؟

وأنا أنطق بهذه الكلمة، أية فكرة مشؤومة جاءت لتعكّر
روحي؟

إذا تلاشت كل تلك الطيبة (وتكفي فكرة واحدة دنسة
لحدوث ذلك) ماذا عسى يفعل النبي الذي رأى؟

سوف يبكي طيلة ما تبقى من أيامه، ناسياً كل شيء حتى ذاته؛

وإذا ما وُهب بعد موته، ينابيع الحياة، فإنه سوف يُولي بظهره
ليواصل البكاء قسماً من الأبدية.



مقاطع

I

في الأراضي الواسعة، في الأراضي الضيقة، قُطف الآس
والغار.
وها هما مضفوران أكاليل على رأس الإنسان. لقد أفرحا ملوك
الأرض.
وبخطئٍ وئيدة يسير أنصاف الآلهة بينما تعتقد روحهم أنها
القوة الأولى في الكون.
إنها تتهيأ لتريق على الكون ثروتها الطائفة التي لا تنضب؛ أما
الأرواح التي سوف تولد، فإنها تلهو مع أشعة الفجر، قبل
ملامسة الأرض، بينما يلهو الفجر بمحياها
فكلاهما مجبول من ضياء.
وتزعق الأصوات البشرية،
الأصوات الغزيرة الصافية كما السيول، تزعق بألغاز اليوزيس،
فتكتسب الحياة معناها كله حين تعانق البهجة نشاطها

الصاخب بالإيقاع والغنى والجمال.
تأتي بالكثير من «أورفيوس» لكنهم لا ينزلون إلى «آفيرن» لأن «آفيرن» هي المكان الوحيد الذي لا تراه عيونهم.
تهيمن غبطة متساوية على الجؤجؤ، والحقل والبيت وأواني رماد الموتى.
غير أن اسم هذا البلد السعيد! تقبلوا بعناية ما تروَّتْ فيه طويلاً ربة الفن قبل الأوان: إن اسم هذا البلد هو اليونان.

II

تلاقى الخالدون بطيرانهم حول الأرض، وملأوها بنشيدهم وحبهم.
غير أن الخالدين والفانين سرعان ما اجتمعوا حول الولائم.
ولم يكن السحر والحلم أسطع بهاءً في أي يوم آخر.
عمَّ التشريع كل مكان لكنه انبثق تلقائياً من القلب.
أحس الشرير أنه معذّب من جديد في أعماق صدره.
قبّل يديه وشدّهما، ذارفاً دموعه، الى قلبه.

III

لكن حياة أخرى تعقب زوابع الموت المظلمة،

وفي البعيد يبتسم النور متكئاً على الصخور.
وكما يتضوّع الأريج من أعماق الحقل، كذلك من قوى
الحاضر الزائلة يولد مستقبل وعالم تنعكس فيهما
السماء.

(*) ولد الشاعر ديونيسيوس سولوموس سنة 1798 وتوفي سنة 1857.
كتب بالإيطالية ثم عاد الى لغته الأم: اليونانية، منذ بداية حرب الاستقلال سنة 1821.
يعتبر من أكبر وأشهر الشعراء في العصر الحديث.
صارت قصيدته «نشيد الحرية» التي كتبها، في العام 1823، النشيد الوطني اليوناني.

□ من أشعار بالاماس(*)

(1)

النُّورُ في كل مكان، النور كلُّه، والنور، كما ترى، يُظهر كلَّ الأشياء مستديرة ومستقرة،
لم يعد من الممكن لأيِّ مبهم غامض أن يقاومكَ،
سواء أكان حلماً أم دخاناً أم شكلاً ملموساً أكثر.
الأشياء المزهوة أو المتضعة تبدو الآن متشابهة.
سواء قمة «بنتليك» أو الأجمة البسيطة، معبد المجد أو زهرة شقائق النعمان الشاحبة، كل الأشياء تتساوى في ميزان الخليقة.
أنت تُدْني منّا كل شيء أيها النور، وفي الوقت نفسه ترينا كل شيء وكأنه يمتلك مصيراً متميزاً.
خليج «ايجين» ينشر بياضه المتلألىء. ولكن ها هوذا الآن جدّ قريب من الهضبان المتقطعة بتناغم.
عمق السماء الذي لا يدلّ عليه سوى سواد طائر أو بياض غيمة، يقترب من منحدر التلّة، ومنحدر التلة من بستان

الزيتون في السهل، والسهل من شاطىء البحر،
ومراكب البحر تتجه صوب عتبات البيوت لترمي بالمراسي
في اليابسة.
النور يبرز كل الأشياء متقاربةً في الهواء،
كما لو أنه يريد تَلْقينَها كيف تتصرف حتى تتوحد في دائرةٍ
وتسقط في أحضان بعضها بعضاً.

(2)

الــى امرأة

(مقاطع)

آن كانت كلماتي تداعبك... كانت روحي تطير كما طائر
ملعون نحو مكابرات رجال مراوغين، نحو ليالي الآثمين
وصوب ولائم الأشرار كلها (...)

أنا أنتمي الى قبيلة الغجر الكبرى، بعيداً عما هو لائق في
المدينة، الى الانحطاط الأسود.

أنا أنتمي الى قبيلة الأقزام الكبرى، والمكان الذي أحتله أصغر
من حيِّزٍ للفُتَات.

أنا أنتمي الى عائلة المعتلِّين الكبرى، وساق يمامة قد
تسحقني.

أنا أنتمي الى قبيلة الغامضين الكبرى: بعيداً عن الشموس تمرّ
أزمنة لا يدركها الخيال.

وفي عالم الحشرات، أنا المخلوق الذي يشبه شعباً غريباً.

متمتعاً بهِبَة الصمت الخفيّ وعدم الإدراك، أشبه مَدَرة التراب الأسود التي تصمد، ثابتةً، أعواماً وأعواماً، كما لو أنها عادت الى حضن الأمومة، في أعماق المناطق الرطبة، الباردة، الملوثة، المحروقة من الشمس.

لكنني، في آن، خطيبة الشمس، الخطيبة المجنّحة التي تصيب بالدوار أنصع الزهور بياضاً.

أنا لطافة البستان، بهجة الهواء الصباحي، تجلٍّ من ندى وأجنحة، وفي التغير الأبدي للأشياء، أنا اليسروع والروح (...)

أنا لست جذع الشجرة الخضراء،

بل زلة البهتان، ونغمة الشرير (...)

وأنتِ مفعمة بالإيمان، بالعافية والفرح،

بريئة، جميلة وساذجة، كما الأطفال،

ظننت ما تبقى من أعوامي شباباً، يا للمصيبة!

وظننت رعشتي وجيب قلب.

وأسفاه! يا ليلة الزفاف المفعمة بالضياء،

العذراء تتزوج، تقترن بشبح.

(*) ولد كوستيس بالامَاسْ في باتراس سنة 1859 وتوفي سنة 1943.
دافع عن استخدام اللهجة العامية استخداماً أدبياً.
من أعماله «القبر» و «مذابح».

أسوار

بلا رحمة، بلا اعتبار وبلا حياء
أحاطوني بجدار سميك وعالٍ.
والآن أبقى هنا يائساً
لا أفكر إلاّ في المصير الذي يضنيني
ما أكثر الأعمال التي كنت سأقوم بها، هناك، في الخارج!
عندما رفعوا هذه الجدران، كيف لم أحترس؟
لم أسمع البنّائين وصياحهم.
سوّروني بتكتم خارج هذا العالم.

المدينة

قلت لنفسك: «سوف أذهب الى أرض أخرى، سوف أذهب
الى بحر آخر..
ولن يطول بي المطاف حتى أكتشف مدينة أفضل من هذه
حيث كل جهودي تذهب سدىً، مسبقاً.
وحيث قلبي مدفون مثل ميت.
إلامَ تظلّ روحي تعاني القحط؟
أنَّى ألتفتُ، أنَّى أنقلُ نظري،
لا أرى هنا سوى خرائب متكلّسة من حياتي،
تلك الحياة التي أفسدتها وبدّدتها طيلة أعوام وأعوام».

لن تجد بلداناً أخرى، لن تجد بحاراً أخرى.
سوف تتبعك المدينة. سوف تتشرد في الشوارع ذاتها،
وتشيخ في الأحياء ذاتها
ويشيب شعرك في البيوت ذاتها.

سوف تنتهي دائماً الى المدينة ذاتها.
ومن أجلك، من أجل نقلك إلى مكان آخر،
ما من مركب، ما من طريق. أقلع عن أي أمل.
لأنّك، كما بدّدت حياتك في هذه الرقعة الصغيرة من الأرض،
فقد دمّرتها في كل مكان.

في انتظار البرابرة
(مقتطف)

ـ ماذا ننتظر، أفواجاً، في هذه الساحة؟
ـ البرابرة الذين سيأتون اليوم.
ـ لِمَ كل هذه العطالة في مجلس الأعيان؟
لماذا إذن يجلس الشيوخ ولا يشترعون؟
ـ لأن البرابرة سيأتون اليوم.
أية قوانين يستطيع سنّها الأعيان؟
عندما يأتي البرابرة سوف يتكفّلون بالقوانين.
(...)
ـ لماذا هذا القلق وهذه الحيرة يعمّان فجأة؟
(إذّ أن الوجوه صارت عابسة).
لماذا تفرغ الشوارع والساحات بهذه السرعة
ويعود الناس إلى بيوتهم، بهيئة حالمة؟
ـ لأنّ الليل خيّم ولم يأتِ البرابرة.

وصل أناس من التُخوم
ويقولون إنه لم يعد هناك برابرة.
ـ والآن، من دون البرابرة، ماذا سيحلّ بنا؟
هؤلاء الناس، بمعنىً ما، كانوا يقدّمون حلاً.

إيثاكا

في طريقك إلى إيثاكا
ادعُ لنفسك كي يطول السفر
خصباً بالمغامرة وغنياً بالاكتشافات.
لا تخش «الليستريغون» ولا «السيكلوب».
ولا حتى «بوزيدون» الشرس.
أبداً
لن ترى شيئاً من ذلك في طريقك
إذا ظلّت أفكارك نبيلة، وخفق
قلبك وروحك بانفعالات سليمة.
لن تلتقي «الليستريغون» و «السيكلوب»
و «بوزيدون» السريع الغضب،
إذا لم تحملهم في قلبك
وإذا لم يُظرهم قلبك أمامك.
تمنَّ أن تكون الرحلة نائية

وأن تكون عديدة صباحات الصيف
التي ترى فيها - بفرح وبهجة! -
موانىء بحرية تعرفها لأول مرّة.
توقَّف في الثغور الفينيقية
لتتزود ببضائع ثمينة:
الصَّدف، المرجان، العنبر، الآبنوس،
العطور المهيّجة من كل الأصناف،
أكثر قدر ممكن من العطور المهيجة
طُفْ بالعديد من المدن المصرية،
واذهب طلباً للعلم، اطلب العلم من الحكماء.
احتفظ بإيثاكا في ذهنك دائماً:
فهناك موعدك الأخير.
لكن إياك أن تتعجل في سفرك.
فمن الأفضل أن يمتدّ أعواماً وأعواماً
وأن تعود إلى جزيرتك طاعناً في السن
غنياً بكل ما تكتسبه في الطريق،
دون أن تأمل من إيثاكا أن تهبك ثروات.
لقد وهبتك إيتاكا السفر الجميل.
وما كان بوسعك الانطلاق لولاها.

لم يبق لدى إيثاكا السفر الجميل.
وما كان بوسعك الانطلاق لولاها.
لم يبق لدى إيثاكا ما تعطيك إياه.
برغم أنها، فقيراً، لم تخيّبْ أملك قط.
غنياً بالتجربة والحكمة،
تدرك أخيراً ماذا تعني إيثاكا.

(*) ولد قسطنطين كافافي سنة 1863.
أمضى أعوامه الأولى مع أهله في لندن، وكانت أعواماً حاسمة في تكوينه الشعري.
عاش معظم حياته في الإسكندرية.
وعمل موظفاً خاصاً في دائرة الريّ التابعة لوزارة الأشغال العامة المصرية.
كما عمل مضارباً في البورصة قبل أن يتفرّغ إلى كتاباته الشعرية التي لم ينشرها ضمن كتاب طوال حياته.
توفي كافافي سنة 1933.

□ من أشعار كازنتزاكيس(*)

أيتها الشمس، يا مشرقي الكبير،
يا قبعة تفكيري الذهبية التي أحب وضعها مائلة،
تتملكني الرغبة في اللعب، ما دمتِ تعيشين وأعيش أيضاً، كي نُبهج قلبينا.
هذه الأرض طيبة وهي تلائمنا؛
كما العنقود المشبوك تتشبث بالهواء الأزرق وتتأرجح في العاصفة، إذ تعضعضها الأرواح وطيور الريح.
لنعضها نحن أيضاً، حتى ننعش فكرنا.
في الدّنّ الكبير بين صدغيّ، أدوس العنب المفرقع؛
تغلي سلافة العنب المحتدمة، يضحك الرأس كله ويدخن في ضوء النهار العنيد.
هل نشرت الأرض قلوعها، أم أن دماغي هو الذي تزعزع؟
هل انتشت الضرورة ذات العيون السود وبدأ النشيد؟
فوقي، هناك الشمس الحارقة،

تحتي، بطني، نورسُ على البحر يستحم في الزّبد؛
منخراي يملأهما الملح، وبظهري تصطدم الأمواج سريعة،
سريعة، ثم تبتعد.
وأرتحل بدوري، معها.
أيتها الشمس، يا ثلاث شموس تمرّ في الأعالي وتنقب في
الحضيض،
أرى قبّعة بحرية، هي قبعة هادم المدن.
لنركله كي نلعب، كي نعرف الى أي مدى سوف يذهب.
للزمن، كما ترين، أوباته، للقدر عجلاته، والفكر البشري هناك
في الأعالي، هو الذي يجعلها تدور.
تعالي نركل الأرض حتّى تنقلب.
أيتها الشمس، يا نظري السريع اللاعب،
يا كلب صيدي الضّاري،
أخرجي الطريدة التي أحبها من مخبئها، تعقّبيها.
ما ترينه على الأرض، اجلبيه،
ما تسمعينه بُوحي لي به،
وسوف أدخل كل شيء في مشغل أحشائي السرّي،
وهكذا بطيئاً بطيئاً، مع الضحك واللعب، مع الملامسات
المترويّة، تصير الحجارة والماء والشعلة والأرض روحاً.

عندئذ تنفصل الروح الثقيلة ذات الأجنحة الموحلة،
تنفصل ببطء عن الجسد، وترتفع كما شعلة هادئة حتى
تتلاشى في الشمس،
لقد شبعتم جيداً، يا أصدقاء، على ضفّة الاحتفال المسترخية.
ضحك، رقص، قبلات صغيرة وثرثرة متمهلة.
اكتمل الاحتفال فيكم وتلاشى في الجسد.
لكن الخمرة تتخمر فيّ، الجسد ينتعش، وثمة هواء بحريّ
يثب ويوشك على إسقاطي.
أرغب في الإنشاد. افسحوا في المكان، يا إخوان!.
آه ما أكبر الاحتفال ما أضيق المكان. تنحّوا، أحتاج الى مكان
أوسع كي أتمدّد، أحتاج الى هواء كي لا أختنق.
فلأمدّ ساقيّ، فلأمدّ ذراعيّ، وعليّ ألاّ أجرح، في تحمسي،
نساءكم وأطفالكم.
لأنهن سوف يرتمين على عنقي، أعتقد، عندما أدع كلماتي
ترتحل من ضفة الى أخرى، لتصطاد الإنسان.
وحينما تجف حنجرتي ويلازمني ألمي، سوف أنهض
وأطالب بمتسع كي أرقص على الضفة.
خلّصني من الحذر، يا إلهي، ولينفتح الصدغان، لتنفتح أبواب
الروح، وليتنفّس العالم!.

ألا أيها الفلاحون ـ النّمال، يا ناقلي القمح،
سأزرع شقائق النعمان الحمراء كي أحرق الحقول.
يا فتيات اليمام البرّي الجاثم على صدوركنّ الندية،
يا فتيان السكّين المشدود الى الحزام،
الأرض شجرة ميتة، حتى وإن تقاتلتم.
أما أنا، فبنشيدي، سوف أجعلها تزهر!.
أيها الحرفيّون دعوا أدواتكم، خبئوا صداراتكم، اخرجوا من
نير الضرورة،
الحرية تطلق صرخة.
الحرية، يا إخوتي، ليست الخمرة، ولا المرأة الناعمة، ولا
الخيرات في بيت المؤن، وليست الابن في المهد،
هي نشيد متوحّد ومستخفّ يتلاشى في الريح.
احتسوا موجة الرفض المرّة، لتطهّروا أفكاركم، انسوا
مخدّراتكم والمنفعة المهينة، ولتصر قلوبكم قلوب
أطفال، لامبالية وهشّة،
ازهري أيتها الأدمغة وليأت العندليب ويبدأ بالغناء!.
وأنتم أيها الشيوخ، اصرخوا حتى تنمو أسنانكم من جديد،
وينمو شعركم أسود مثل الغراب، وتعود الروح المنطلقة
الى الوثب من جديد!.

بسيدتنا الشمس أقسم، بسيّدنا القمر، الشيخوخة حلم والموت وهم.

كلّ شيء من مكائد الروح وألعاب الذهن، الكلّ ريح تهبّ وتفتح الصدغين.

كان حلماً خفيفاً ثم خُلق هذا العالم.

فلننطلق لغزو العالم،، يا أصدقاء، مع النشيد!.

أيه! يا رفاق الرحلة، امسكوا بالمجاذيف، القبطان يتقدّم.

أيتها الأمهات قدّمن أثداءكن لأطفالكن الرّضع، وليكفّوا عن البكاء!.

الى الأمام! لا مجال للهموم الصغيرة، أصيخوا السّمع، سأروي مغامرات عوليس وعذاباته.

مقطع من النشيد الأول

نظر الشيخ الى امرأته، فبدت له ساطعة الجمال،
كما في ذلك المساء، عندما كشف الحجاب لأول مرّة عن
نهديها؛
وكانْ الشباب صامتين، ينظرون الى الفتيات وحناجرهم
تخنقها الحسرة.
انقضّ غمّ ثقيل على الاحتفال، ومثل جيشين متواجهين،
شحب الرجال والنساء وتحدى بعضهم بعضاً، ولمعت
أنياب الرجال الحادة في ضوء القمر الفاتر.
عندئذ نهض المنشد الكبير، أكبر شيوخ البلاد سناً، ذاك الذي
قديماً، أرقدت قيثارته رامي السهام في مهده.
إذ ذاك تنفست كلّ الصدور، وهدأت كلّ الحناجر وانفتحت
الآذان التي لا تروى، كي تستقبل النغم الجديد.
ابتهج ذهننا لرؤية الرجل الناضج يعقد جسده زهرة ويعطي
أولى ثماره ثم يجلس، عندما يشيخ، مثل إله في ساحة
السوق، يثقل رأسه بالشمع فيطفح عسلاً.

ولكن، حين تنبثق النبتة من أصغر بذرة، حتى تتمسك جذورها
بالأرض ويستحوذ رأسها على الضياء، حين تتفتت
الحجارة من نموها وتتصدع الجبال، حينها ما من فرحة
أبهى، أيها الإخوة، في هذا العالم البائس.
هذا المساء سوف أتغنّى لكم بأصغر بذرة
كنّا، أنا وجدُّ الملك، متمدّدين على جلديْ أسدين، في أعلى
مصاطب القصر،
نتمتع بالمساء، مثل إلهين قديميْن أصابتهما الشيخوخة،
ونحتسي نبيذاً حلواً، نتأمل البحر في البعيد.
وعندما غربت الشمس محتضرة على الأمواج الدامية، انقضّ
ألم لا يطاق على قلب الجدّ،
فركضت المربيات وأتين بالحفيد الأثير، العون والسّند، في
أقمطته الذهبية.
رفعك في الضياء مثل جمرة متقدة:
ـ أبوك الفلاح يريد أن يجعل منك مزارعاً، وهو يهدْهدك في
البساتين ويدحرجك في الأثلام، أمّا أنا فأغطسك في
الموجة كي تصير قرصاناً.

الاختتام

أيتها الشمس، يا مشرقي الكبير،
عيونك متورمة من الدموع،
العالم كله يكفهر،
والحياة فريسة للدّوار؛ تنزل الى أمّك، إلى بيتك الذي من
أمواج
كانت تنتظرك منذ زمن طويل، واقفة عند العتبة، تحمل مشعلاً
شاحباً كي تضيء لك، وخمراً كي تقدمه إليك:
«لقد أعددتُ لك المائدة، يا بنيّ. كلْ حتى تقْوى. أربعين
رغيفاً ساخناً، يا بنيّ، أربعين أبريقاً من الخمر، وعوضاً
عن الشموع العسلية، أربعين فتاة غريقة.
هيّأت لك سريراً من ورد ووسادة من ليلك، لأنني انتظرت
لياليَ ولياليَ، يا صغيري!».
لكن شمسنا القاتمة، شمسنا الغاضبة، قلبت المائدة، فتبدّدت
أرغفة الخبز على الأمواج، وتلطخ البحر بالخمر،

أما الفتيات ذوات الشعور الخضراء كأسماك الشّيق فقد غصن
بين الأشنات.
انطفأت الأرض،
اسودّ البحر، انحلّت الأجساد،
صار الجسد روحاً، وصارت الروح ريحاً،
والريح تهيج وتتأوه. في الصمت المخنوق دوّت آخر صرخة
للأرض، صرخة يائسة، بلا حنجرة، ولا فم، ولا صوت،
انتحاب الشمس:

(*) ولد نيكوس كازنتزاكيس عام 1883 في «كاندي» وأمضى طفولته في جزيرة كريت حيث عايش الحرب التي خاضها الوطنيون ضد الاحتلال التركي. درس الحقوق في أثينا ثم سافر الى باريس ليتتلمذ على الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون الذي أثر فيه تأثيراً لا يقلّ عن تأثير نيتشه.
أعقبت ذلك مرحلة سفر متواصلة بين برلين والاتحاد السوفياتي. صار وزيراً في العام 1955 وشغل منصباً إدارياً في اليونسكو قبل انعزاله للتفرغ الى أعماله ثم وفاته في ألمانيا سنة 1957.
عرف كازنتزاكيس برواياته التي ترجم معظمها الى العربية مثل «زوربا» و «المسيح يصلب من جديد» و «الحرية أو الموت» و «الإخوة الأعداء». لكنه ألف في عدة مجالات أخرى مثل المسرح: والدراسات: الى جانب المذكرات وأدب الرحلات: وتعتبر ملحمة «الأوديسة» لهوميروس من أشهر الأعمال الخالدة التي تركتها

«أمّاه، تناولي عشاءك، اشربي كل الخمر!.
مددي على الفراش ظهرك المتعب.
لم تعد لي رغبة، أماه، في خمر أحتسيها أو خبز آكله؛
ففي هذا المساء، شاهدت محبوبي ينطفىء كما تنطفىء الفكرة».

= الحضارة الإغريقية. وبعد هوميروس بحوالى ثلاثين قرناً استعاد كازنتزاكيس.
موضوع هذه الملحمة وبطلها «أوديسياس» (أو «عوليس»). في ملحمة أخرى تتكون من 33333 بيتاً شعرياً. وتتغنّى بعظمة الإنسان التي لا تخلو من ضعفٍ ومآسٍ.
في العام 1924 «الأوديسة» التي استغرق في كتابتها أربعة عشر عاماً، أي من 1924 الى 1938.
ولم ينته من تأليفها إلا بعد صياغتها سبع مرات، ليستقر على الصياغة السابعة في 24 نشيداً.
بعد انتهاء كازنتزاكيس من تأليف الملحمة وجد نفسه أمام مأزق النشر إذ رفض الناشرون المغامرة بنشر الأوديسة التي بلغ وزنها في نسختها الأصلية ثمانية كيلوغرامات! الى أن تبرّعت إحدى «المُحسناتِ» وتحملت نفقات النشر.

□ من أشعار سيكيليانوس(*)

نشيد إلى نجمة الصبح
(مقاطع)

أقبلتْ امرأة من الجبل، واثبةً
مثل ظبية، نافضةً شعرها
مثل أسد فتيٍّ، تحمل بين ذراعيها
هدية زواج صوفي: قلبها،
وكأنه مسنود بحزام شُدَّ عالياً؛
أقبلت امرأة تحمل في صدارها،
رغبتها، مثل أرنب بري أسود الدّم
يرتعش مع حفيف كلّ ورقة؛
وأقبلت مباشرة لملاقاتي،
كما تأتي الرياح إلى الشجرة المتوحدة،
الشجرة التي تحرس القمة، هائلة،
متاخمةً للعالم،

ثم تشرع فجأة في ملء السماء
بجلبةٍ تنبؤية؛
وأقبلت لمقابلتي مثل جدول
عندما يغمر بمياهه المزبدة
شجرة الدُّلْب المتجذّرة على ضفّتيه
ويستعرض قواه حولها، فيجعلها
تهتزّ من جذورها شاعراً بالسعادة؛
أقبلت المرأة الآن وأنا أنتظر
من دون أن أعرف، منذ أعوام،
مقيماً وحدي خفيةً
على قمة رغبتي، مثل صخرة؛
وأقبلت إلى الأبد،
وأقبلت كما المطر...

ومن الأحشاء الشديدة الارتواء،
من القلب الذي تفتح دفعة واحدة
مثل كتاب أحمر، من الروح العارمة
التي استقبلت المطر الناعم بودّ،
فجأة تحررت من كل قيودها،

من أعماق الروح، شعلة العالم المضطرمة
كلمة الإنسان الإلهية.

وكما ديونيزوس مفلتاً فوراً
من أيدي «التيرينيّين»
لينتصب على مركبة متسامياً بكامل جسده
في زمجرة تبلغ أصداؤها النجوم
كذلك قلبي، منصرفاً بكامله الى رياح رغبته؛
تملّكته نشوة باخوسية وشرع
يزمجر بلا نهاية،
لكنني رفعت ذراعيَّ نحو تلك المرأة،
من دون أن أتكلم، لأنها ارتدتْ نظراتي،
وانتصبت أمامي في صمت مطبق.
ومن جبينها الصافي المتوج بشعر متموّج،
من شفتيها المكتنزتين المرسومتين بازدهاء ظافر
كما أصداف الأوقيانوس الأرجوانية،
بل، ومن ثوبها الملتهب حيث أحسست
بانبجاس ركبتها الناعمة مثل نبع خفيّ،
كانت تنشر من أجلي، عطوراً، كما

تفعل الأرض، عندما تتوارى
الشمس عن حقل واسع
فتشعل في حضرتها وهي تمسك بأنفاسها،
كل خلاصاتها العطرة الكامنة في أحشائها لتهبها إياها.

(*) ولد إنجيلوس سيكيليانوس في العام 1884.
أعاد الروح الى احتفالات الإغريق بإحياء التراجيديا القدسية والرقص الشعبي اليوناني.
شرع في إنشاء مركز دائم للدراسات في دلفي قبل موته بأشهر.
انصرف منذ 1935 وحتى تاريخ وفاته، الى التأليف المسرحي الدرامي الذي كان يريد عرضه في دلفي.
كتب قصيدة شهيرة في شبابه قال فيها إنه لا يخشى السم..
مات سنة 1951 بعد أن تجرّع سماً تناوله سهواً بدل الدواء.

□ من أشعار سيفيريس(*)

(1)

ترى ما الذي انتاب هذا الرجل؟
أمضى وقت ما بعد الظهيرة كله (أمس وأمس
الأول واليوم) محدّقاً في شعلة من لهب.
تعثّر بي مساءً وهو ينزل السلّم.
قال لي:
«الجسد يموت، الماء يصير عكراً، الروح تتردد
والريح تنسى، تنسى بلا انقطاع
لكن الشعلة لا تتغيّر»
قال لي أيضاً:
«أتدري أني أحبّ امرأة ارتحلت الى

العالم الآخر ربما؛ ولست أبدو في
منتهى الوحدة لهذا السبب.
أسعى الى التمسّك بشعلة
لأنها لا تتغيّر».
ثم روى لي حكايته.

(2)
طفلاً

عندما بدأتُ أكبر كانت الأشجار تعذِّبني
لِمَ تبتسم؟ ربما فكّرت في الربيع الذي يُعتبر
قاسياً بالنسبة للصغار..
أحببتُ الأوراق الخضراء كثيراً
أعتقد أنني تعلّمت شيئاً ما لأنّ الورق النشاف
على مقرإي كان أخضر بدوره
كانت جذور الأشجار تعذبني عندما تأتي في حرارة الشتاء
لتلفّ حول جسدي
ولم أكن لأحلم أحلاماً أخرى عندما كنت طفلاً؛ هكذا
تمكّنت من معرفة جسدي.

(3)
مراهقاً

كان لي من العمر ستة عشر عاماً، وبحلول الصيف شدا
صوتٌ غريبٌ في أذنيَّ
أتذكّر كان ذلك على شاطىء البحر، ما بين الشِّباك
الحمراء وزورقٍ منسيّ على الرمل، هيكل
حاولت الاقتراب من ذلك الصوت بوضع أذني على الرمل
اختفى الصوت
غير أن نيزكاً
كان ذلك كما لو أنني أرى نيزكاً لأول مرة، ومذاق الموجة
المالح على الشفتين.
في تلك الليلة عفّت جذور الأشجار عن المجيء.
وفي اليوم التالي انفتحت رحلةٌ في ذهني ثم انغلقت مثل
كتاب صُور؛
فكرتُ في الذهاب إلى شاطىء البحر كل مساء.

لأدرس، في البداية، شاطىء البحر ثم أتوغل في عرضه:
في اليوم الثالث شُغفتُ بفتاة على قمة كانت تملك بيتاً
صغيراً أبيض مثل مُصلى مهجور وثمة أمّ عجوز قرب
النافذة نظاراتها مائلة صوب إبرتيْ حياكة، وهي مغرقة في
الصمت
أصيص حبق أصيص قرنفل.
أعتقد أنها كانت تدعى فاسو، فروسو أوْفيليو؛ هكذا
نسيتُ البحر.
وفي يوم اثنين من شهر أكتوبر
وجدتُ جرّة مكسورة أمام البيت الأبيض الصغير
ظهرتْ فاسو (باختصار) مرتدية فستاناً أسود شعرها
مشعث وعيناها حمراوان
وعندما سألتها:
«لقد ماتت، قال الطبيب إنها ماتت لأننا لم ننحر الديك
الأسود على أساس البيت.. كيف عسانا نجد ديكاً أسود
هنا.. لا توجد سوى حيوانات بيضاء.. وحتى الدواجن
تباع منتوفة الريش تماماً في السوق».
لم أكن لأتصور الحزن والموت على تلك الطريقة غادرتُ
ملتحقاً بالبحر.

وفي الليل على جسر القديس نيقولا حلمتُ بزيتونة هرمة تذرف دموعاً.

(4)
شاباً

سافرتُ عاماً مع القبطان عوليس
كنت سعيداً
أمكث أثناء الطقس الجميل عند الدفّة
قرب زخارف تمثال «الغورغونا»
أتغنّى بشفتيها الحمراوين مشاهداً
الأسماك الطائرة،
وعندما يهيج البحر أكمن في زاوية من الأنبار مع كلب
المركب الذي يدفّئني، ومع انتهاء العام ذات صباح
شاهدت منارات
قال لي رئيس النوتية:
«إنها آيا صوفيا، هذا المساء سوف آخذك الى الفتيات»
هكذا عرفت اللواتي لا يرتدين سوى الجوارب
النساء اللائي يخترن، نعم.

كان مكاناً غريباً
حديقة فيها شجرتا جوز وكرمة معترشة وبئر
يحيط بها الجدار وفي أعلاه شظايا من زجاج
كانت ساقية تغني: «في مجرى حياتي».
عندئذ شاهدت قلباً لأول مرة
يخترقه السهم الشهير
مرسوماً بالفحم على الجدار.
رأيت أوراق الكرمة
مصفرة على الأرض
وملتصقة بالبلاط ذي الوحل الرديء
خطوات أول خطوة كي أعود الى المركب.
فأمسك بي رئيس النوتية من ياقتي
وألقى بي في البئر؛
ماء حار وفيض من الحياة حول جسدي...
ثم قالت لي الفتاة وهي تداعب لامبالية ثديها الأيمن:
«جئت من رودس، زوَّجوني وأنا في الثالثة عشرة مقابل مائة فلس».
والساقية تغني: «في مجرى حياتي».
تذكرت الجرة المكسورة باردة في الظهيرة وفكرت:

«سوف تموت هي الأخرى، ترى كيف ستموت؟»
قلت لها فقط:
«احذري سوف تفسدينه إنه مورد رزقك.»
وفي المساء على متن المركب لم أجرؤ على الاقتراب من تمثال «الغورغونا»، كنت أشعر بالخجل.

(*) ولد جورج سيفيريس (يورغيو ستيليانو سيفيرياذيس) في إزمير سنة 1900.
انخرط في السلك الدبلوماسي لبلاده.
جمع في كتاباته بين الأساطير الإغريقية القديمة ومشاكل العالم المعاصر.
نال جائزة نوبل في العام 1963.
من أعماله: مقاطع (1931) ويوميات سفينة (1940-1955).
توفي سيفيريس في العام 1971.

☐ من أشعار ــ أوديسياس اليتيس(*)

ساعة الغريب المائية

I

الشمس غاضبة، ظلُّها المقيّد يطارد البحر
بيتٌ صغير، بيتان صغيران، راحة اليد التي انفتحت
بالنضارة معطرة كل شيء
شعلات وشعلات تحوم في الهواء موقظة أبواب
الضحكات الموصدة
حان الوقت للبحار كي تلاقي المخاطر
ماذا تريد، يسأل الشعاع، وماذا تريد يسأل الأمل خافضاً
جلبابه الأبيض
غير أن الريح أنهكت الحرارة، عينان تتأملان
ولا تعرفان الى أين تحملان لفرط كثافة المستقبل. سيأتي

يوم يختلس فيه الفلّين، شأنه شأن المرساة، مذاق الأعماق.
سيأتي يوم يكون صنواهما فيه واحداً
فوق الذرى أو تحت الذرى التي صدّعها اليوم النشيد المسائي،
لا أهمية لذلك، الأهمية توجد في مكان آخر
فتاة، فتاتان، تُطرقان على باقات الياسمين وتختفيان
ظل جدولٌ صغير ليغنيهما ولكن هناك بالضبط أحنَتْ الليالي عطشها
يمامات كبيرة ومشاعر عظيمة تغطّي صمتهما ويبدو أن مرضهما عضال
ولا أحد يدري إن كان الألم سيرغب في التعرّي معهما
الفخاخ نادرة، مفاتن النجوم ترسل إشارات للعشاق، كلّ الأشياء تستيقظ وتتجمّع - يبدو أن الخلود موجود هنا أخيراً،
الخلود الذي تبحث عنه الأيدي عندما تعصر قدرها فيغيّر جسده ويصير ريحاً
عنيفة - الخلود هنا، يبدو.

II

أعشاب مزهوّة، خسر الصديق صديقه، كل شيء يستريح
هنالك صوت قاس سَكَنَ هذا السهل
عظاية جانحة تتجرجر على السطح
وأنت، ماذا تفعل يا ترى عندما يُذبح مثل هذا النهار
ماذا تفعل، ورقة ورقة يتقدّم العالم بهدوء
الثمار تنفجر على عتبة النحيب
لا أحد يجيب
أيها الدرب الثمل الذي بحث، بحث عن الحنوّ
بأصابع الألم، مجفلاً من مطالع الفجر
مجازفة بأنوارها غابة يغطيها الصمت. وحتى زهر النرد
إذ يُرمى لا يَسِمُ الإلهام بهذا الشكل ولا الضجة العارمة
تستنفر النفس بهذه الطريقة. مداخن ملونة تقذف كآبتها
التي لا تُدرك الى سهام الصروح المهتزة، الطيور ترتجف
وتشرع في عدّ أحلامها.
نسمع ضجة الجدّافين فوق الرماد الذي يترك آثار فتوة

ولا أحد يعرف من أي جانب يفتح هذا الصدر
ولا أحد يعرف بدءاً من أية لحظة بدأ يعيش
وفي قلقها المجعّد تحس الأصوات التي تثقب الأرض أنها
مقطوعة الرؤوس
كما أغصان مشتعلة في مدينة مياه
أيتها السكينة التي تنْحلُّ، حضوراً سائلاً في مآقي العيون
في براثن النعاس في قفير بلدان الذكرى!

III

أبعد من ذلك، بعيداً جداً ـ اللقاء ـ سطح المياه الهادىء..
صباح الخير يا نهري الصغير، أنا وحيد، كلانا وحيد بدأ
الصفاء يتضوّع، لم يعد يتقصنا سوى مركب، سوى منديل
للتّنبُّؤ بالخاتمة.
ذلك أني استلمت ظروفاً عديدة ملأى بغيوم وعواصف
حتى أَدرَكَ الظمأ مِنّي فماً يقول لي: لازوَرْد كي أندفعَ
برفقته فوق دلتا الآمال..
هكذا سوف نخرج من دماغنا، اللبلاب كبَّر جدرانَ

الظهيرة تعمَّدَتِ الكلمات بالرمل تضمَّخَتْ بقطرانِ غاطِس
السفِن المتأهبِة لِعـَزْفِ نـوبة الصّباح إذا طـلب الحـبُّ ذلك
ـ الكلمات
أيها النهر الصّغير، النهر الصّغير، صباح الخير من
الشمس زهرة منتقاة من الحقول
أين تتأمل الرّيح ذاتها، قل لي، أين تنسكب أناشيد الطيور
وأي الضفاف تختار، أنا فتيٌّ هذا اليوم
أنا طيّبٌ حتَّى ينابيع ضحكتي، أطلقُ إيهاماتٍ،
مراوحَ يصعب فكّ رموزها، دفاترَ بيضاء بيضاء مهيَّأةً
لملائكة وخارج كلٍّ لامبالاةٍ تتجرجر أمنية ممزّقة أَلتقطُها ـ أنا
فتيٌّ هذا اليوم، وهذا يكفيني.
وهذا يهبني دماً أكثر احمراراً، سنونوة حمراء، كتابة حمراء
نساء كثيرات سوف يأتين ليقاسمْنَها حتى يصرن
شفافات وأباطيل كثيرة سوف تأتي لتتقاسم تلك النساء
المرح الصاخب يبدو كأنه لا ينتهي أبداً، شرارات في مرورها
تَمسُّ الجبهات المشتتة في الهواء
وإذا السرُّ كله ينكشف قليلاً قليلاً، وبهدوء يتحول إلى
نهارٍ جسدٍ حيٍّ، وجودٍ، إنسان.

IV

ما هذا المعدن الذي يجمِّد العينين، أيّ شباب ضائع
يقطف شفقة بضعِ لحظاتٍ من سلكٍ صلبٍ ـ ما هذا
يا ترى؟ ثمة أشجار سكتَتْ، أحجار شابَهَتْ أحجاراً، فرسان
ارتحلوا يبحثون عن مزلاجيْ باب آخر ولكن أيّ بابٍ يا ترى
في أيّ خفقانِ قلبٍ يمكن أن يوجد، الآمال تُوصِدُ
نوافذها، المساء يحط على الألم.
مَنْ هناك؟ لا أحد ـ صدى الأرض يردّ على الأرض
ومع ذلك، فإن على الحياة أن تجد عُمْلةً
وبما أنها ليست الحبّ، بما أنها ليست الحبّ
ما الحبّ ـ الحياة تقاس بالنّبضات، والفرح بالحركات
اليائسة ثمة طواحين على القمم تقوم برحلات بيضاء
الحياة تُقاس بالنبضات، حزام المساء المنحلّ ينتفض
السَّراب يلمع في البعيد، وثمة مركب صغير يتلاشى
في عرض البحر راضياً
حضن الموجة لا يحتفظ بالشتيمة

الرجال يتشابهون، إنهم يشبهون صرخات المنارات
يرتحلون إلى أماكن أخرى ويجدونْ أنفسهم دائماً في
البحر أيّ بحر؟
هل هو البحر الذي لم يعد يتذكّر لحظاته الصافية ويحبّرّ
كلماته باستمرار
أحزان، مثل ملاءات تجفّ، تصْفق الريح وتكرّر
صفقها لتتمكّن النّوارس من الاقتراب إلى جانبها
هذه الأحزان، ماذا عساها تكون؟
أيّ ألمٍ هادىء، أية وحدة محطّمة، أيّ نحيب؟
أيها الفَرح الجريح، يا فسحة لحظةٍ تزعزع قروناً!

(*) ولد أوديسياس إيليتيس في هيراكليو (جزيرة كريت) سنة 1911.
درس الحقوق في أثينا.
شارك في الحرب اليونانية ـ الإيطالية منذ 1935.
حصل على الجائزة القومية سنتة 1960 على قصيدته «إكسيون آستي» (ليمجّد اسمه).
نال جائزة نوبل للآداب في العام 1979.
من أعماله: الشمس الأولى (1943) «الشجرة النيّرة والجمال الرابع عشر» (1973) «مونوغراما» 1973.
ترجم الى عدة لغات عالمية.

□ من اشعار يانيس ريتسوس(*)

وقائع يومية

قالت له: «خذ المفتاح معك وعندما تعود ـ لا
يهمّ متى ـ افتحْ وادخلْ. سوف تجدني هنا». مرّت أعوام
بكاملها. عندما فتح،
أول ما التقاه في مرآة الخزانة، قُبالة الباب،
كان هو نفسه، ولم يشخ كثيراً، في سترته الرمادية.
هنا أيضاً، كان هو نفسه الذي ينتظره؟ وهناك، على
الجدار، ثُبِّتت بمسمار، قطعة من الورق: «انتظرني.
لن أتأخر عند بائع الفواكه». تناول قُبَّعته، ودس
الورقة في جيبه ثم ارتحل.
ظلّ المسمار في الجدار لامعاً مثل حشرة،
ثابتاً في حياة هي حياته بالتأكيد، ذات ظهيرة من ذهب
وصيف.

ثانية

سيجارة مشتعلة.

فتاة على الشاطىء.

حجارة سقطت في الماء.

لم تكد تقول: حياة.

بيت

مذاق عميق للنهاية يسبق القصيدة. بداية.

سُلَّم أَحَاسِيس

وَرْديةً، برتقاليةً توارت الشمسُ. البحر
أزرق ـ أخضر داكن. وفي البعيد، مركبٌ ـ
نقطة سوداء تنُوس. أحدهم
وقف، وصرخ: «مركب! مركب!»
الآخرون، في المقهى، غادروا كراسيهم. ونظروا.
إنه مركب حقاً. ورغم ذلك فإن الشخص الذي صرخ،
كما لو أنه مذنبٌ الآن تحت نظرة الآخرين الساخطة،
طأطأ رأسه وقال بصوت خفيض: «لقد كذبتُ عليكم».

تصويب

كان آخرُ وَمْضٍ في المساء يُضيء له
الصفحة البيضاء التي يتهيأ ليكتب عليها شيئاً ما عن البحر
وعن البيوت المغلقة. لكنه خاف أن تُطفىءَ إحدى كلماته
على الصفحة
ذلك الومْضَ الورديَّ الذهبيَّ للغروب.
أغلق دفتره إذن، معتقداً
إنه بتلك الطريقة يحافظ تماماً على ذلك
الصمت الورديّ الكامل. وفي الغد،
نظر إلى الصّفحة. كانت بيضاء،
ذات بياض لا يصدّق مثل فراغ مسطَّح،
يكشف ضعفه الشخصي تماماً. لذلك،
وبحركةٍ كما لو أنّه يُخفي بها عينيْه،
كتب بسرعة هذه الكلمات:
«الصّمتُ ليس ورديًّا، إنه أبيض.»

وكان قد بدأ يدرك البياض كله وراء الصفحة
مثل تمثالٍ عارٍ خلفْ ستار شفاف.

ليلة

طيلة أعوام، ظل القصر الريفيّ الصغير مهملاً؛
كان يتهدّم قليلاً قليلاً .
القضبان، الأقفال، الشرفات؛
وذات ليلة،
أُضِيءَ الطابق الثاني كلُّه فجأة، نوافذه الثماني، باباه
المتشابكان المشرّعان بلا ستائر.
توقف المارة القليلون،
رفعوا رؤوسهم.
صَمْت.
لا نَأَمَة.
مربّع فارغ مُضاء.
وحدها على أحد الجدران،
مرآة عتيقة مائلة،
إطارها من خشب أسود منقوش،

تعكس حتى عمقٍ عجيب
ألواحَ الأرضيّةِ المنخورة المقعّرة.

(*) ولد يانيس ريتسوس سنة 1909 من عائلة غنية سرعان ما عرفت مصيراً مأساوياً وإفلاساً: إذ مات أخوه ثم ماتت أمه بالسل وجُنَّ أبوه ثم جُنَّت إحدى أخواته.
وأصيب يانيس ريتسوس بالسل، هو الآخر في سن السابعة عشرة، الأمر الذي ترك بصماته عليه وعلى شعره.
قضى مرحلة المراهقة والشباب بين المصح والأعمال الشاقة طلباً للعيش مما جعله يقترب من المثال الثوري في كتاباته الأولى ومنها «تراكتورات 1934» و «أهرامات» 1935.
شارك في المقاومة اليونانية وعانى من السجن والمنفى.
ثم سرعان ما لمع نجمه الشعري ونال عدة جوائز محلية وعالمية.
من أعماله الشعرية الأخرى «أحياء العالم» 1951 «سوناتا تحت ضوء القمر» 1956،
«شكل الغياب» 1958، «خريسوثيميس» 1967-1970. «فيدرا» -1975 1974 إلخ..
توفي سنة 1990.

المحتويات

المترجم

- من مواليد 1950 في مدينة باجة (الجمهورية التونسية).
- درس بتونس وأكمل دراسات فلسفية في دمشق وبيروت.
- ساهم في ترجمة عدد من الروايات والدراسات والأشعار الى اللغة العربية. ومن بينها «خريف البطريرك» لماركيز.
- أصدر مجموعة شعرية واحدة بعنوان «حافة الأرض».

في هذه المختارات التي نقدمها اليوم للقارىء العربي، سعينا إلى الجمع بين ثلاثة أصناف من الشعراء اليونانيين. فهناك شعراء باتوا معروفين لدى القارىء بفضل ترجمة مختارات من أشعارهم، وصدورها في كتب ومجموعات هنا وهناك. ومنهم، في الدرجة الأولى: كافافي، وريتسوس.

وهناك شعراء، يعتبرون «نصف معروفين» إذا صحّ التعبير. أي أنهم لم يحظوا بترجمات متكاملة، إلا ما نشر لهم من قصائد متفرقة في بعض الدوريات العربية وضمن نماذج مختارة قليلة من أشعارهم. ومن هؤلاء سيفيريس وايليتيس، على سبيل المثال.

يبقى هناك صنف ثالث، ضمن مختاراتنا هذه، وهو لم يحظ بترجمات تذكر عندنا. ويدخل ضمن هذا الصنف كلٌّ من سولوموس وبالاماس وسيكيليانوس. ويمكن أن نضيف إليهم كازنتزاكي الذي لم يعرف عندنا إلا بأعماله النثرية. ونحن نقتطف له في هذه المختارات مقاطع مطولة من ملحمته «الأوديسة» الجديدة.

هذه المختارات نعتقد أنها هي أول كتاب في العربية، يجمع بين دفّتيه هذا العدد من الشعراء اليونانيين.

دار الملتقى للنشر